سيرة بني غازي: جولة في ارجاء مدينة اختفت (3 من 3)

نعتنا إخواننا السودانيون بشعب الله «المستعجل» لأننا نسير مصروعين في ليالي رمضان للعب في ميدان البلدية

كل ركن مهدم، كل شارع فيه ما يدل على آثار القنابل والانفجارات وهذه مدينة يحلو فيها المشي والتسكع

أحمد الفيتوري*

«كنت مثاليا. فمنذ عودتي من مصر سنة 1957، وأنا أنظر إلى ليبيا نظرة تقديس. كنت أرى البشر فيها كآلهة الأولمب، لا يسقطون، وان سقطوا فسقطتهم تهز الأعماق، ويأتي بعدها التطهير المطلق !. كنت أراهم مجردين من خطايا البشر. صدقني إذا قلت لك أنني كنت أنظر فأرى كناسا – مثلا – يكنس الشوارع فأود لو أجري مقبلا يديه. صدقني أنني وصلت بنغازي ورأيت بيوتها مهدمة من أثر الحرب، ورأيت النفوس مطحونة ولكنها معاندة وصلبة، فأحسست وكأنني هبطت إلى مستقر أبطال طروادة».

عبدالله القويري

ميدان البلدية مطلع ستينات القرن الماضي

.. تقطع الطريق نحو الميدان، وان تمترست سينما «النجمة» منزوية، ففي الميدان ترسخ وتوتد السكليستة، محل تصليح وتأجير الدراجات الاقدم من القدم سي الجهاني الذي تشبث منذ نصف قرن بأن يكون الدراج، في زاويته الحسان سليم/ الحلاق القدم، العجوز زوج العجوزة بنغازي، حارس الميدان ميدان الشجرة وان ماتت الشجرة فإنه حي كالمدينة الحية، من تغير جلدها وتلبس لبوس كل وقت، غضة ومراهقة تتموض بكل موضة حاضنة كل غريب. بنغازي رباية الذائح في ميدانها، ميدان الشجرة تنوس، ونس الغريب من يصل متقلا بمسافات التعب متكئا هذا الميدان.

تكية أصلها عين الغزالة، ولمن غاب عن مدينته وعن ميدانه كما غابت شجرته فإن عين الغزالة بنغازي، مقهى ككل مقهى جديد يتخذ مكانا قديما ولى زمانه أو وهن عنه أو شاخ ومن عقبه ابنه ما ذل ولا زال.

في هذا المقهى أحط الرحال مساحة اللقيا ومستراح المودة، كل ليلة بعد أن يصلي الناس التراويح، آخذين في الترويح عن أنفسهم، مسرعين كمصروعين، وقد نعتنا اخواننا السودانيون بشعب الله المستعجل، من أجل لعب الورق والتسكع في ميدان الشجرة الكمشة قبضة اليد، في الميدان مقهى عين الغزالة محل كاريدكس للمجوهرات سابقا ما ذكرني به من لا ينسى، عين الغزالة ضيق كما الميدان، طاولات في عدد اصابع اليد أقل أو أكثر بقليل، مودرن أو كما مقاهي الدنيا في هكذا زمان.

في «عين الغزالة» ألتقي ادريس المسماري، علي الفلاح، محمد الاصفر، عادل جربوع، محمد بوشويقير (حمه) وغيرهم من مثقفي المدينة، اتسامر ومن ذكرت منهم الناقد والصحافي والمسرحي والتشكيلي، نتناجى، نتشاكى، نتناكد، نتبادل النكت والاخبار والاشاعات والكذب الصغرى وما صدق ونتذاكر ونتذكر أصدقاءنا حيث ما كانوا أو غابوا وان بعيد فم السور في القبور. وفي مقهى عين الغزالة في ميدان الشجرة في مدينة بنغازي الليبية اكثر من كل مدينة، نتناقش، ما قرأنا ليلة البارحة، مذكرات ساخرة للمفكر السوري أبو علي ياسين، أو مذكرات الشابي تقديم محمد لطفي اليوسفي ونشر دار «سراس» التونسية. لكن الحديث يشدنا من لجام ما صدر من كتب ليبية كتب الأصدقاء: «ديوان جنازة باذخة» للشاعر مفتاح العماري: عند الصباح / وجدنا مدينة أخرى / نصفها غابة / ونصفها الآخر لا يرى / عادت بنصف جديد من الموسيقى / والسجائر والرؤى / فلم نعرف صوتها المحطم / وعطرها الذي كان متوحشا / وشعرها الملون بالمرائف الغريبة / فوقفنا / مرتبكين نتنفس خوفنا / لا ندري كيف ندخل الشوارع / التي تقلنا بلا رأفة / إلى ضفاف عجيبة..

ميدان البلدية عام 1908

كتاب (أفق آخر ـ آراء ومتابعات في الشأن الثقافي الليبي) للشاعر والكاتب محمد الفقيه صالح، من الاصدرات الهامة هذا العام 2002 الذي زخر بالاصدارات، الكتاب يحتوي على مقالات مميزة مثل (الشعر، الرقص، الموسيقى) البيان الشعري الذي كتبه ونشره الفقيه في السبعينات، ومقال (كلمة عن جيل السبعينات في ليبيا) المنشور في مجلة الفصول الأربعة عام 2000. تفردت الليلة في عين الغزالة حتى قرب منتصفها لكن ادريس المسماري غالبا لا يخلف ميعادا، أطل فواصلنا نقاشا فاضلا من ليلة البارحة عما جاء في كتاب أفق آخر حول مفهوم الجيل وربط الجيل بفترة زمانية عقدية في حين أن هذا المفهوم يمكن استخدامه عن ظاهرة جيلية ما مثل جيل 27 الاسباني الشهير، أو فكرية برزت في مرحلة ما بين جماعة متجايلة، لكن هذه العقدية لا تمنح امكانا لأي استخدام نقدي، وأخذنا نقاشا مطولا في ذلك وفيما حوى الكتاب من مقالات هامة.

أما مهووس السردية، الكاتب الساعة، الكاتب حيثما كان وفي أي وقت، الناشر في كل موقع انترنت يقبل مناشيره، الناشر الكاتب على كل ورق، الكاتب قصة بين قصة وقصة، المشاء، المتلذذ بما كشف فكتب، قوريانئي الكتابة: الكتابة اللذة والوجود لذة الكتابة، محمد الأصفر كل هذا وغيره وما ليس هذا: يكتب روايته الأولى.

يحكي ما لم نسمح له مرة بقراءة ما كتب: امرأة من أصل ليبي اسبانية أصولية، افغانية ممسوسة بالحرب ومدسوس فيها الحب، شغف يوطئها وطنها، وطنها، مطرودة مطاردة، هذه الساعة يكتبها محمد الأصفر مطاردا ثوانيها متوطئا مع اللحظة: كنت برداناً جائعاً صعدت مطعماً فوق سطح نزل شعبي يشرف على الساحة. التهمت صحن كسكسي وطبق سلطة. اشعلت سيجارة رشفت من الشاي وبين السحب والرشف أراقب الساحة. الخلق تتجمع مجدداً قافلة مظلاتها. نافضة معاطفها وستراتها من قطيرات المطر. عاد النشاط يعم الحلقات أغمضت عيني لبرهة وفتحتها رافعاً رأسي إلى السماء. ابتسمت لنفسي ونفسي لابتسامتي. وابتسامتي قهقهت متسعة.. نقدت النادل ونزلت منخرطاً في الحلقات. مشاهداً ومشاركاً بحماس. لم ألعب كفاية في صغري. أبي عامل يومية. يخرج فجراً ويعود بعد صلاة العشاء. كانت أمي تقفل علينا الكوخ فأتلصص من خلال الثقوب لشبه الحياة اليومية. لا أذهب إلى السينما إلاّ أيام العيد. وما أقلّها الأعياد. وقد تكون أياماً يعمل فيها والدي.. البحر ممنوع والأقران الميسورون يتباهون. أحياناً أعاند وأهرب من الكوخ. أذهب إلى سبخة رأس عبيده. اصطاد الفراشات بشريط بلاستيكي. واسبح شبه عار على ضفافها الضحلة. كثيراً ما وشا الوشاة فضربني أبي بقسوة.... ووبخ أمي توبيخا بذيئا، مقسماً بتطليقها أو الزواج عليها بمصرية إنْ غفلت عني لحظة واحدة.

لا أدري لمَ يَفعل والدي ذلك؟ إلى الآن لم أفهم وحتى وإنْ فُهمت فسأعتبره فهماً بائتاً.

سوق الظلام بني في العهد العثماني نهاية القرن قبل الماضي

في عين الغزالة عين الساعة عين ميدان الشجرة عين بنغازي، لا نتحقق إلا من قراءتنا: أصدقائي / في ليالي السهد لما / ينشر القلب لمن يهوي جناحه / ويمد القمر الأخضر للعشاق راحه / ساكبا في رفة الصبح إليهم موعدا / فاعلموا يا أصدقائي الطيبين / أن آمال الهوى لن تخمد.

عمر المختار.. ميدان الحوت أسر عمر المختار ايلول (سبتمبر) 1931

أقبل نهار أنحرف عن جمال عبد الناصر إلى عمر المختار تاركا عن يميني ميدان الملح، حديقة المجاهد التي تعج بالعصافير الطليقة، وبنفر من البشر المكبلين بالهموم والتعب من أثر مراجعة المجمع الإداري ما يقع في الجانب الأيمن للحديقة مجانبا لمبنى صحنه قبة وطرزه تتشابك بين معمار اسلامي وإيطالي. هذا المبنى شاخ رغم أنه بني في مطلع خمسينات القرن الماضي كمجلس تشريعي، هذا المبنى شاخ، شباب الجامعة حاد عنه لما لم يعد مكتبة جامعة بنغازي لسان حالهم أعمى المعري: أبني بجهلي دارا، لست مالكها، / أقيم فيها قليلا، ثم أنصرف.

يوم ولدت افتتحت الجامعة الليبية في بنغازي، فكانت كلية الآداب أول كلية وذلك في العام الخامس والخمسين من القرن العشرين، في مبنى قصر المنار قصر الملك الذي كان قصر الوالي الايطالي، بذا كانت بنغازي جامعة ليبيا وكان مبنى المجلس التشريعي مكتبة هذه الجامعة حيث تلتقي بطلاب العلم من كل ليبيا وبأساتذة من أقطاب الدنيا. لم يكن المبنى كما هو الآن، هدمت طائرات الحلفاء الكثير من المباني وأزال الليبيون غيرها ومنها ما شيد في مكانه مبنى المجلس التشريعي لولاية برقة: palazzo del tribunale هكذا كان اسم المبنى ذي الواجهة التي تتوسطها أقواس ثلاث مزخرفة تشكل المدخل ما في مقدمته درج، على يسار المدخل أقواس ثلاث أيضا ومثلها في اليمين لكنها أقواس أقصر وهي تشكل مقدمة «روف» المبنى حيث تطل ست نوافذ، في الاعلى تتبين قبة صغيرة وعلى الجانبين صومعتان صغيرتان، أمام هذا حديقة صغيرة وارفة، في الصورة هذا في الذاكرة أن فيه جرت محاكمة عمر المختار.

في الناصية رجل يمشي تعبا يشاكس ظله، مشدود القامة يمشي لكن هذه القامة تؤمى بأنها قابلة الترهل، الرأس حاسر يخفي علامات الطربوش والنظارة ظاهرة، هذا الرجل طافح بما فيه، تخيلته يقطع قلب الحديقة قطعة قطعة فيما سلف، من خلتني خلفه غير الصالح، الأطراف تطوحت، الرجل عن أختها، اليد تنازع شمالها يمينها، العيون زائغة، في فضاء الحديقة، قبعة الشجر المرصعة بالعصافير واليمام البرتقالي تشغلني عن أن أرقب الرجل المشتبك في جسده والمتخبل في فكره يكتب في الذهن مسرحيته: عمر المختار، خيال يطل كأن عبد الله القويري وهو عائد من المهجر المصري حط هنا دون قصد أو روية ليسوح كخيال في مدينة مخياله، أو هي كانت راقدة تنتظر: بنغازي شوارع تعيش آثار الحرب.

مقهى ميدان الحدادة مطلع القرن الماضي

كل ركن مهدم، كل شارع فيه ما يدل على آثار القنابل والانفجارات، المباني نصفها قائم والنصف الآخر خراب، عمارات رمم بعضها وترك البعض الآخر. وأخذني ما أشاهد إلى أن استنكه النفوس، فهي حتما ما زالت تحمل بقايا الحرب وآثارها في جوانبها. إنها تبدو ظاهرة الحركة، نشيطة، ولكن الشظايا في العيون، مثلما الحطام في الصدور، والعناء في القلوب. والصغار حملوا العبء من أجل لقمة الخبز. بنغازي مدينة في وطني، وتظل قدماي تحملانني وأدور في الشوارع عبر أزقة، وحذائي يرتطم بالحصا، وكثيرا ما «تنهبع» قدماي في حفرة، لأعود واقفا أمام «فندق النجمي».. مطيلا الوقوف قدر ما أستطيع، فالريح باردة، وما علي من لباس لا يكفي فصل الخريف. جئت لا أحمل شيئا غير ما تحمله كتفاي، وكانت حلة من قماش قطني، تدلت جوانبها، وكان علي أن احتمل حتى استطيع استبدالها. واحتملت والشتاء يقترب فالشهر الأخير من عام 1957، تركت أحلامي منذ زمن بعيد، وما ينتابني وقد أطبق على مدينة بنغازي غير ضيق يأخذ كل نفس، فما أكثر ما يردد الفرد منهم كلمة طايرة له، تسمعها منه وهو يلقيها في وجهك دون اعتبار، وربما لا تسمعها ولكنك تدركها على ملامحه أو تتلقى نتائجها دون أن تدري.

يطل وجه عبد الله القويري من النص على المدينة برما وقد تلحفه البرد، وفي عينيه أرى الميناء على شمالي فاصلا بيني وبينه شارع أحمد رفيق المهدوي، جبانة السفن الميناء ومحيطها، والمدينة ملاعب أوروبية ترتع فيها قنابل ومتفجرات، تركة الحرب الثانية ما سوف تكون سوق التركة الذي في مطلع السبعينات من القرن العشرين أكلته النيران.

أنشغل عن وقدات القويري بشغب رجال الشرطة أمام مركز المدينة، شمال الحديقة وقد هممت بعمر المختار الشارع الذي أبغي، هذا المركز ملتصق بالخاصرة اليمينية لسينما «البرنتشي» سينما بنغازي، التي بنيت كما بني فندق برينتشي قصر الجزيرة حاليا، عند زيارة الدوتشي موسوليني في مطلع العقد الثالث من القرن الغارب، سميت السينما على اسم بنغازي الاغريقي برنيكي الذي ينطق بالايطالية برينتشي وعرب ببرنيق، كذا يذكر مؤرخ المدينة محمد بازامة.

في مطلع السينما مسرح مفتوح كمقدمة لواجهة الدور الأول بخلفية أقواس رومانية تتخللها نوافذ مستطيلة رأسية، ركح هذا المسرح الخارجي تزدوج مهمته بين أن يكون مقاعد أصحاب الشرب كامتداد للمقهى، وبين أن يكون خشبة مسرح الهواء الطلق، في حالة تقديم عرض مفتوح على الشارع فإن قلبه مفتوح لذلك ونفسه مشروحة، المدخل المرمري يتسع كالمسرح الداخلي صاحب الادوار الثلاثة: يتسع اللمة الكبيرة والزحمة. وان كان الركح، كما الصحن والبلكونات تتسع جميعها حتى يعد مسرح برينتشي هو استعادة للمسارح الرومانية في فخامتها، فإن الكواليس يمكن أن تدخلها سيارة بجرار وتخرج دون حرج، لكن الحرج حقا أن هذا المسرح الشامخ طاله حريق شوهه وخسفه عن المدينة حتى الساعة دون صيانة ولا يحزنون، فلا تبكي كما يبكي المكان طلة يوسف وهبي في الثلاثينات، ولا نزار قباني في السبعينات أو أسابيع السينما الجزائرية والفرنسية منها.

في الخاصرة اليسارية لبرينتشي ثمة مبنى من نفس الطرز الايطالية للسينما حتى يبدو مولودها فواجهته / البراندة تصلح كمشرب أو كمسرح خطابي وكذا كانت عند بنائها، هذا المبنى مقر الحزب الفاشي الذي تحول لمقر لنادي الأهلي وحاليا المصرف الأهلي، وما غريب في ذلك فالمبنى صغير وحافل بالمسرات لكل بخيل ولا يحب جديدا.

القاص رمضان بوخيط

أخال عبد الله القويري في المقهى، وقد فاتني أن اسفل المبنى قد كان مقهى بازامة صاحب كراكوز بازامة الاشهر في خمسينات بنغازي وهو غير بازامة المؤرخ وان كان من عائلته، وأن عبد الله القويري: تدثر بالظلام وطاف وحده بالمدينة فيما النوافذ تتلصص عليه وهو يحوم حول هذه البنايات الكئيبة كطائر فقد عشه.. انفض المقهى وبدأ النادل يلملم كراسيه المبعثرة على الرصيف تمهيدا لقفله، ودون ان ينظر اليه:

ـ استاذ.. تعاقب الليل، ارجوك لملم كتبك أريد ان أجمع هذه الكراسي والمناضد داخل المقهى..، تفرس فيه.. حتى هذا يريد أن يتخلص منه. انتفض على صوت سيارة تمرق وسط الشارع.. كان صوت موج البحر واضحا في صمت الليل، ممزوجا بصوت حفيف الاشجار يسقط على الاسفلت مع وقع أقدامه. دخل الفندق وبالدور الرابع حيث حجرته الباردة، تمدد على سريره بكامل ملابسه.. عقد يديه خلف رأسه محدقا إلى فوق.. إلى عنقود الضوء المعلق بالسقف.. تحسس وجهه وبقفا يده اليسرى مسح دمعة كان يحس انها تسيل على خده من غير صوت ولكن بقهر..، رمضان عبد الله بوخيط مسترسلا يكتب قصته: حكايات الماضي القريب في ركينة المقهي دون أن ينتبه أحد غير البحر الهائج، ما يحوط من أركان ثلاثة بنغازي شبه الجزيرة الليبية.

منارة سيدي خريبيش عام 1911

بين هذه الاركان الثلاثة أمشي وحيدا مسورا بالبحر، وفي البال خاطر ينسرب من خاطر على يميني مصرف الأمة، روما سابقا، وقبالته شارع يسده البحر عند ثلاجة الميناء، في ركن الشارع، شارع عمر المختار، المصرف التجاري الوطني، في منتصفه المصرف العقاري يحاذيه مصرف الوحدة فرع المختار، ما أكثر المال ما أقل الجمال في هذا الخيط الرفيع من هذا الشارع الذي في طرفه شرطة السياحة حيث كان البنك العربي، وفي نهايته في ميدان البلدية فرع للمصرف التجاري الوطني، غص عمر المختار مالا كما رشق على الاوراق المالية ورشح هذا المال قبحا في هذا الشارع المغمور بالورق والمغفور بأوساخها.

أمشي الهوينا مسورا بمبنى مصرف الأمة الحديث، مبنى وظيفي ملطخ بالورق تستمد البشاعة منه ملامحها فيخرج علي مدرس سيارات ليؤكد هذه الملامح ويصبغها بالعبث، محاذيا المصرف الوطني ما يتمخطر في طراز ايطالي يصبغ حلة شارع عمر المختار، ولا شيء يقطع خيط الوصل بين ما يجوس النفس من خواطر وأحلام يقظة شرسة تنبش العقل الباطن والبراني.

الرتابة تندس في المكان وفيروس الوحدة القرين، مدركا أن ليس بمقدورنا أن نفهم من نحن، نحن اللغز الذي لا يحرزه أحد، مدشنا الخاطر بطلعة بهية مسافرا منفردا في الشارع ولا أحد يرانا أو يسمعنا، نحن فقط نرى أنفسنا: هو يحث الخطى وأمشي الهوينا، أقرب من الوجيب ولكن على خطوات مني، أرقبه وقد تخطى الشارع المندس بين مدرس السيارات والبحر في طرفه الاول المصرف الوطني وفي الثاني كانت مكتبة عامة في الخوالي من الايام، كنت من روادها أطالع مجلات الاطفال سندباد والليبي الصغير وسمير وأسرق ما أقدر من كتب الكيلاني ملخصات شكسبير وديكنز..، وكنت تركت خلفي «المركز الثقافي الليبي» في تقاطع عمر المختار وجمال عبد الناصر وكان هذا: مركز مرتع الصبا ومطلع الشباب.

الآن فقط بلغ الممر بدايته وبقيت في مكاني لا أتزحزح، على يميني مبنى بريد بنغازي أسير تباريح الندم وهول الخواء ما طاله بعد أن كان فنار الشارع وحداثته تطوقه صناديق وألواح مطروحة محولة رقبة المبنى لعقد قمامة الباعة المتجولة الذين يطرحون: كتب عتيقة ومجلات قديمة وأقدم، ملابس داخلية وخارجية، بويات وما شابه ذلك...، في شمالي قبالة البريد العمارة ذات الأقواس الطويلة الممر وبين ما كان سابقا المكتبة العامة ومصوراتي عوض عبيدة، من هو من رواد الفن التشكيلي في البلاد، من هو صاحب أول معرض دائم لفنان تشكيلي في البلاد، بين هذه وهذه مكتبة قورينا: مقاعد أصحاب العقل، في المكتبة طول وفيها عمق ظاهر، في فترينتها على جانبي ممرها / مدخلها للكتب الليبية أساسا، وغيرها من الكتب، وفي الواجهة لوحات ونحاسيات شرقية زاهية بقدمها.

أحمد بن بيلا وقادة الثورة الجزائرية في بنغازي نهاية خمسينات القرن الماضي

قبيل أن ادلف اسمع زائير أسد يقطع الطريق ولا أحد يستطيع مواصلة الرحلة، قاطع طريق مميز بعد أن تمكن الجمع من تدبير أمر قطاع الطرق البشر، اقترح أحد التجار أن يشترك الجمع في جمع ثمن جمل هزيل فدية لذا الأسد كي يخلي الطريق للسير للقافلة، لكن عمر المختار لم يقبل، فلم يلزم ذلك كما لم يلزم دفع الاتاوات للبشر، وعدها علامة الذل والهوان، اقتربت القافلة باصرار المختار من ممر الأسد ومربضه وانبرى عمر المختار للأسد فأرداه قتيلا وسلخ جلده ليراه من لم ير. ذكر الطيب الاشهب أنه اجتمع مرة في خيمة المجاهد محمد الفائدي في دور المغاربة بالمختار، وذكره بالاحدوثة فرد عليه عمر المختار: تريدني يا ولدي أن أفتخر بقتل صيد. تناهى الحكي من مكتب المكتبة لمسامعي وقد تخطيت الممر وولجت المكان، يسيطر عليَ التحفز والاثارة، ومتيقنا أن ثمة منارة يلوذ بها الأفراد المتوحدون، وأن اليقظة زوال الحلم من الوجود: يا ويحهم نصبوا منارا من دم.

* كاتب واديب ليبي

ميدان البلدية 1958

ميدان البلدية كما كان في عام 1908

ميدان 9 اغسطس